أثر الأم في الطفل

لمحمد العشماوي بك[1]

رأت إدارة هذا المعهد أن تخرج بطالباته عن الجو الدراسي العادي في بعض الفترات فتجنبهن التزام المنهج المرسوم بنظرياته الدقيقة وطرائقه التحليلية وبحوثه العلمية التي تنتظمها الدراسة لتنتقل بهن الى آفاق واسعة من ضروب المعرفة العامة تساعدهن على استكمال ثقافتهن في حسن إعداد الطفل

وتحقيقاً لذلك نظمت محاضرات عامة خاصة. فهي عامة من حيث خلوصها من قيود المنهج. وهي خاصة لاتصالها عن طريق مباشر أو غير مباشر بالطفولة. فتكون هذه المحاضرات في منزلة أحاديث اجتماعية حرة تزيد في ثقافة الفتيات وتوسع مداركهن في الناحية التي يتخصصن لها. فاذا أضيف الى هذه الأحاديث توجيه الفتيات الى مطالعات في الكتب والمجلات الأدبية والاجتماعية، تكوّن من هذا وذاك طائفة من المعلومات الاجتماعية تعينهن اجمل العون في منهجهن الدراسي وتوجههن وجهة سديدة في طريق الحياة

ولقد رأيت أن أفتتح هذا النوع من الأحاديث أو المحاضرات — على تحوّز في التعبير — بحديث عن «أثر الأم في الطفل» وليكن مفروضاً أني لا أتحدث محاضراً يطالب بعرض بحثه على أساس علمي؛ بحيث تكون له عناصر المحاضرة من مقدمة وموضوع وخاتمة، مع استقراء وتحليل. وانما أتحدث اليكم حديث رجل اجتماعي يتأثر بالبيئة التي اتصل بها والمحيط الذي درج فيه. وهو حين يتكلم يتصور مثلاً أعلى لمجتمعه المصري ويصف معالم الطريق الذي يوصل الى تحقيقه. فانه لابد ان يكون أمام المشتغل بالاصلاح هدف يرمي اليه، ومثل أعلى يعمل له. وإلا تعثر في خطاه وذهبت جهوده عبثاً

وليس لأي مصلح في أية بيئة أن يعدو الاتجاه في سبيل الطفولة أول ما يتجه، فالطفل عدة

---

(١) يعني الحديث الاجتماعي الذي ألقاه حضرة صاحب العزة الأستاذ جليل محمد العشماوي بك على طالبات معهد دور سات الحضانة ومدرسة السنية الثانوية للبنات في يوم السبت ١٣ ديسمبر سنة ١٩٤١

المستقبل ومعقد الأمل في الخلاص من مساوىء الحاضر . ولذا جاز لنا ان نيئس من يومنا الراهن لما يضرنا به من آفات متأصلة وشرور متغلغلة لم يجز لنا أن نيئس من غدنا المرتقب . وللاطمئنان لهذا الأمل يجب علينا أن نعد طفولة صالحة يترعرع نباتها في تربة صالحة فيخرج لنا رجالاً ونساءً ينهضون بأعباء الحياة، لا للحياة كائنة ما كانت كالسائمات، ولكن الحياة كريمة عزيزة تكافىء ما سلف لاجدادنا من مجد في الحضارة تليد ، وتواجه ما نرجوه في مستقبلنا من أمل في النهوض وطيد . فلو قصّرنا في تكوين الطفل تكويناً جسمانيًّا وعقليًّا وروحيًّا أخرجنا الى الوجود جيلاً لا أقول في مرتبة الانعام ، اذ انهُ لا يحقق نعماً ماديًّا مثلها ، ولكنهُ جيل أهون منها شأناً وأضل سبيلاً

وكيف يتهيأ لي أن أتحدث في نشأة الطفل دون أن أتخذ الأمومة محوراً لكل ما أقوله . فبغير الام وحسن إعدادها لا ترجى للامة طفولة سليمة في جسمها أو عقلها أو روحها

ولما كان المستقبل رهناً بالطفولة السليمة فانهُ اذا لم تعد الأم إعداداً صالحاً فلا أمل في جيل جديد ولا رجاء في مستقبل منشود . فالام أساس الاصلاح من أي نوع وفي أي ناحية وهي التي يجتمع فيها عاملان : عامل التعمير ان صلحت وعامل التدمير ان فسدت . فان شئنا صلاحاً بدأنا بها قبل كل شيء . واذا لم نخصها بالرعاية كان خيراً لنا ان ننقض ايدينا من الاصلاح جملةً وتفصيلاً

ولقد كان رأيي في الاصلاح دائماً ان نبدأ باعداد الأم اي الفتاة. فالثقافة والصحة ورفع المستوى الخلقي وتحقيق التوازن الاقتصادي وتعزيز روح الادخار وحسن تدبير المعيشة — كل ذلك لا يقوم له كيان الاّ اذا أسهمت فيه الأم بالنصيب الأوفر . فهي العنصر الأهم في تكوين الأسرة . وما الأسرة الاّ الخلية الحية للامة حيثما ألفيت شعباً صالحاً ألفيت فيه الأم كالدعامة للبناء الشامخ . وليت المصلحين يقفون على إصلاح الامومة جهودهم. إذن لاستراحوا من أشتات المشكلات . واذن لحلت كل مشكلة نفسها وتزايلت دون كدٍّ او عناء

ولطالما ناديت بأن تأخذ الفتاة من الثقافة الحظ الأوفى وتصل من العلم الى أبعد مدى. فان ذلك يهيئها تهيئة صالحة لتكون أمًّا صالحة . فالام تربي الجيل فيجب أن تتوافر لها صفات المربي القدير ، تتسع آفاق معارفها حتى تستطيع النهوض بالرسالة الموكولة لها، وتتفتح أعينها على حقائق الحياة كلها حتى تمضي في طريقها على هدى. وان الذين يسألوننا : لمَ نعلّم الفتاة ؟ هم قوم يعيشون في الظلمات ويتأذون بالنور. فليعلموا أننا نعلمها لتربي الجيل ولتستطيع أن تنقذ الطفولة من عهود الظلام ، ونحن لا نبغي من وراء ذلك ان تؤدي المرأة عمل الرجل . فان هذا يأتي وراء رسالتها . وخطأ أن يقاس عمل مصانعي أو تجاري أو مهني بعمل فتاة تقوم على إعداد

النشء وتربية الجيل وإنشاء المستقبل، فيجب ان نعنى بالتربية الثقافية وأن نبلغ بها في هذا المضمار أبعد الشوط . والمتسائلون «لم ننتقل بالفتاة الى عليا مراحل التعليم » يقولون أو يتساءلون أننا نعد فتاتنا لتصبح أمًّا وزوجاً ولتكون لمنصب الأمومة كفئاً . فكيف تدار الشباب من أبنائها أم لم تثقف ثقافة أرفع من ثقافة الشباب ؟

على أني أعيب على القائمين بشؤون التعليم تسويتهم في المراحل العالية بين الفتاة والفتى وجعلهم التعليم دائرة واحدة في هذه المراحل للجنسين معاً. ولو أنصفوا لجعلوا التعليم العالي للفتاة صالحاً لاعدادها إعداداً يؤهلها لمنصبها الطبيعي الخطير . وإني لأذكر حديثاً جرى بيني وبين أحد كبار السياسيين من الأجانب في شؤون التعليم . فتطرقنا الى الحديث في موضوع اجتماع الجنسين او افتراقهما في مرحلة التعليم العليا . فسألته : هل يجتمعان عندكم ؟

فأجاب: إن اتجاهنا الحديث يرمي الى الفصل بينهما في هذه المرحلة . فقلت: هل تخشون من اجتماعهما شيئاً . فقال : نحن نريد التفريق بينهما لأنه يجب ان يكون لكل من الجنسين إعداد خاص في مرحلة التعليم الجامعي . وبون شاسع بين فتى يعد ليضطلع بالاعباء العامة . وليسعى في سبيل الرزق، وفتاة تعد للنهوض بأعباء الاسرة نهوضاً يحقق رسالتها كاملة في بناء الجيل وتوفير سعادته

فاذا أردنا أن تعد الأم طفلها إعداداً حسناً وجب علينا أن نعد الأم أولاً فنهيء لها بيئة كريمة . نحوطها بسياج من الطهر والعزة ونعدها بنوع من الثقافة العالية يتفق مع خطر رسالتها في الحياة . فبقدر ما نبذل من جهد في إعداد الأم يكون الأثر الحسن في إعدادها هي للطفل من بعد . وعلى هذا يجب أن يكون برنامج الاعداد للامهات وافياً بمختلف النواحي . وافياً بالناحية الصحية على وجه خاص . حتى يتسنى تجنيب الاطفال ويلات المرض والضعف والتشويه . وافياً بالناحية الخلقية حتى لا يرث الطفل عن بيئته الشذوذ والاعلال الخلقي . وافياً بالناحية الثقافية حتى يستطاع توجيه الطفل توجيهاً صالحاً في تربية ملكاته العقلية وتنمية قواه الذهنية من طريق التدرج في غير افراط لا يتناسب مع سنه ولا تفريط يقصر به عن درجة التقدم المتفقة مع هذه السن . وبغير اكتمال هذه النواحي في إعداد الأم لا يحق لنا ان نرتقب شيئاً يحقق ما نتطلع اليه من آمال وما نرجوه من أعمال جسام

* * *

ولقد عرفت الأمم المتحضرة أثر الأمومة في بناء الطفولة فخصتها بموفور الرعاية . حتى لقد أوردت انا عن الحكم في وزارة تقوم عليها وتعمرت دهرتها على الطفولة والأمومة في جميع المراحل . فمكان من عمل هذه الوزارة أن ترعى الأسر في شؤون الأمومة والطفولة

فتبحث بأطباء واجتماعيين يوالون السؤال والاستطلاع والارشاد. ولقد ذكر لي بعض المطلعين أن في بعض الأمم أطباء إخصائيين وحداً اجتماعيين يترددون على الأسر ويقدمون الى الحكومة تقارير عما يصيب الاطفال والأمهات من مرض او اضطراب او نقص في التغذية. ومما يصنعهُ هؤلاء أن يزوّدوا أرباب الأسر التي يزورونها ببطاقات بحاجات الأم أو الطفل. فتتقاضى الأم من الحكومة ما في البطاقة من دواء أو غذاء أو كساء عندما تعوزها الوسائل للحصول عليها. وعمل هذه النظم تبني الشعوب الرشيدة مستقبلها على أساس متين، وتقيم نهضتها على دعائم ثابتة من الجسم السليم والخلق القويم

ومن مظاهر العناية بالطفولة في بعض الأمم الناهضة ما يحظرونهُ من زواج الرجل والنساء الذين لا يستطيعون أن ينتجوا إنتاجاً صالحاً. ومن أجل ذلك عقموا من لم تثبت صلاحيته من الرجال والنساء خلاصاً من النتاج الهزيل. حتى لا تعد الأمة بألوف الألوف كثرة إحصاء فاذا حان وقت الاضطلاع بالمهمات لم تستطع هذه الكثرة شيئاً ولم تجد فتيلاً . . . وكيف تنتظر نباتاً صالحاً من تربة غير صالحة. وكيف ينشأ الطفل على ما ينبغي له من صفات القوة وحسن الاستعداد إذا كانت الأم فاقدة لهذه الصفات على حين أنهُ بصحتها أو مرضها يتأثر وفي جوها يدرج، ولحركاتها وسكناتها يقلد. ولما كان أثر الأم في الطفل لا يقتصر على ما بعد الولادة. وإنما يبدأ الأثر منذ الفترة التي يتكوّن فيها الجنين. وجب أن تكون الأم خلال هذه الفترة موضع رعاية صحية دقيقة تضمن صلاح الانتاج. وإن في قول رسول الله صلى الله عليهِ وسلم « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » لأشعاراً بوجوب رعاية النسل وتوجيها الى ضرورة العناية بمنابت الجيل وأغراس المستقبل

***

وحين يشهد الطفل ضوء الوجود تقع على عاتق الام مهمة لها خطرها فهي المسئولة عن تنشئته في سلامة وضعه الطبيعي الذي صاغه الله. فيجب على الام المرضع أن تقدر مهمتها وأن تفهم وظيفتها. فكثيراً ما تجيء المصائب من طغيان الجهل وسوء التقدير. يجب عليها ان ترضع طفلها على أساس صحي دقيق. تعين فيهِ فترات الارضاع ومواعيدها وتقف على بصيرة من تطور حالة الطفل الصحية، لاتباشر في شأنه عملاً الا قدرت عواقبه واحتاطت له. وإذا عرفتم أن خمسين في المائة من الاطفال تلدهم أمهاتهم المصريات لتودعهم القبور زهرات لم تتفتح بعد، سهل عليكم أن ترجعوا السبب الى قوة أثر الامومة الجاهلة في الاضرار بالطفولة الباكرة. فبارتفاع نسبة الجهل في الامهات ترتفع في الاطفال نسبة الوفيات

والطفل حين يتضح إدراكه وينظر حوالَيه يتخذ أمه قدوة في النظافة والذوق وفي الصدق

أو الكذب وفي الصراحة أو النفاق . فهي تؤثر فيهِ تأثيراً مباشراً يلازمه طول حياته . فعلى الأم أن تكون مثلاً صالحاً فيما تأخذ وما تدع . فإن لم يكن الصلاح في طبيعتها كان عليها أن تتكلف ذلك تكلفاً وأن تلزم نفسها به إلزاماً حتى يقتدي بها طفلها فلا تطالبه بأمر تأباه ولا تنهاه عن شيء تفعله . واني لأذكر أنهُ منذ أيام ضمني مجلس رجال ونساء بينهم طفل في نحو الرابعة فلما انتهينا من الغداء أديرت أقداح القهوة فطلب الصبي قدحاً منها فانتهرتهُ أمه وقالت له: هذا عيب . فأجابها : واذا كان عيباً فلماذا تفعلينه : ولن يستوعب عقل الطفل بهذه العبارة أن القهوة لا تليق بالصغار أو تضرهم . فيجب ألاَّ يصدر من الأم قول أو عمل تأباه على طفلها : لأن ذلك ينطبع في نفسه ولا يملك الخلاص منه . وكثيراً ما تخطىء نحن أشد الخطأ حين يسأل عنا سائل فنرسل الطفل ليخبر بأننا غير موجودين . فهذا درس في النفاق والجبن والكذب يتلقاه الطفل في بيئته ويلازمه أثناء حياته ثم تأتي مناعاته كلما امتدَّ به الأجل وأحاطت بهِ مشكلات الحياة ومطالبها

***

ومما يجمل بالأم الحرص عليهِ أن تهيء لطفلها جوًّا نقيًّا طاهراً يؤثر في ذوقه وتفكيره ونظرته للحياة ؛ فإن الطفل في نشأته يسعى الى تعرف حقائق الاشياء ويحاول تعليل ظواهر الحياة . فاذا لم تكن الأم على حظٍّ من لباقة الحديث واستقامة التفكير وسعة الحيلة في إشباع رغبة الطفل زلزلت قواعد تفكيره وأخمدت شعلة ذكائهِ وأماتت فيهِ غرائز طيبة كان يجدر بها ان تنميها لتسدد خطاه في مراحل حياته جميعاً . إذ يشب قوي الملاحظة محبًّا للاستطلاع سليم التفكير قوي الخلق

فاذا تقدمت السن بالطفل وبلغ مرحلة الحضانة كما يسميها الشرعيون او التربية كما يسميها المربون او التوجيه كما يدعوها الاجتماعيون — وجب على الأم ان تلقنه دروس الحياة دون أن ترهقه بنظريات التعليم . وأن تعنى بصحته وخلقه وعقله لا تخص بعنايتها العقل وحده ولا الجسم وحده . فانها إذا ربته تربية خلقية محضة دون أن تلتفت إلى التربية الجسمانية شب ضعيفاً تعتلكه نية صالحة ولكنه لا يستطيع لضعفه ووهنه أن يحقق المثل الأعلى . وإذا ربته تربية جسمانية خالصة لم يتجه بقوته الى تحقيق مثل إنسانية رفيعة . فليتحقق أثر الأم تحققاً صحيحاً ولتوازن بين الجسم السليم والخلق القويم في تكوين الطفل . فلا تثقل كفة على حساب الكفة الأخرى

وإن رسالة الأم لتتعاظم إذا بلغ الطفل دور الصبا . إذ يجب عليها أن تغرس فيه

صفات الرجولة الصادقة ، من إقدام وتعويل على النفس إلى صراحة وجهر بالحق . الى غير ذلك من الصفات التي تعينه على أن يكون رجلا صالحا . وأثر الأم في ذلك هو الأثر الأول والأخير لأن الأب على الغالب مشغول بطالب الحياة قليل الاجتماع بطفله، وما يصلحه الأب تفسده الأم الجهول لأنها أكثر اتصالاً بالطفل وأبعد نفوذاً وأقوى أثراً في حياته وتكوينه

ومما لا يحتمل الجدل ان الأم هي المربي الأول للروح القومية والدينية في الطفل ولذلك وجب في اعداد الامهات ان تكونهن تكويناً قومياً وتنشئهن تنشئة دينية. وان شئتم دليلاً على خطر التغاضي عن هذا التكوين فانظروا الى مجتمعنا المصري تتبينوا أن السواد من افراده لا يعرفون من الدين الاسلامي غير تأدية مظاهر الفرائض إذا أدتها ، بعيدة عن تشرب روح الاسلام ومبادئه وجوهره . فالتقوى عندنا اقوال تتلى وحركات تؤدى والصوم امساك عن الطعام « ظواهر خشية وتقى كذباً » وأساس ذلك سوء تربية الأم . فلو كانت تفهم الدين جوهراً وروحاً لتلقاه أطفالها روحاً وجوهراً . والدين خشية الله ، وهو الوازع الاول الذي يجعلنا نأبى الشر ونجتنبه في كل مكان في السر والعلانية. والتربية الدينية هي التي تغرس في النفوس الايمان الوثيق بغلبة الحق وتقوى الله في القول والعمل . فلا إسراف فيما أباحه الله ولا اقتراف لما نهى الله عنه. وإذا كانت النظم الوضعية تكفل تنظيم بعض العلاقات المشتركة بيننا وبين غيرنا من الناس فان الحدود الدينية تنفذ الى قلوبنا فتطهرها من الرجس وتقوي نواحي حياتنا الروحية وتحسم في طوايانا عوامل الشر. فأما التربية القومية فهي التي توحي الينا بذلك المثل العالي في الحياة الجمعية وهي أن نضع مصلحة الوطن فوق كل اعتبار . وهي التي تجعلنا ننظر إلى أهل البلد الواحد كأنهم إخوان من نسبة واحدة . وهي التي تشعر كلاً منا بأن في ماله حقاً للفقير والمحروم وفي قوته لمنادي والمكري نصيباً لمجائع والسائل

***

وغاية القول أن الأم هي البطل في رواية الحياة . بل إن أثرها ليمتد الى الدار الآخرة فان ربت وأصلحت كفلت لمن ربتهم وأصلحتهم حياة فريدة في الناحية وعاقبة محمودة في الآخرة . وان أساءت كانت لهم الدنيا كالآخرة جحيماً . فرض علينا أن نعد الأم تكوينا جديرة بهذه المكانة . صالحة لأن تكفل للنشء حياة مثمرة وآخرة سعيدة . وإني لأرجو أن تكون هذه صرخة مدوية يتلقاها كل مصلح فتشيد في المدارس والمعاهد من أجل الامومة والطفولة ووزارة الصحة لأنها أهملت الطفولة والامومة وأحرياً بها أن تنشئ في مقابل كل مدرسة ثانوية للبنات مدرسة للامومة والطفولة تعد فيها الفتاة من جميع نواحيها لتكون أماً صالحة وتعد فيها الزوج لحياة الأسرة وتقدر له مسئولياته . وبذلك نضمن لمجتمعنا الرقي والتقدم ونضمن لحياتنا الزوجية السعادة والاستقرار . والله ولي التوفيق